بودي أن أصدقك

حلمي صابر 1444هـ



____

- بودي أن أصدقك،
- لم استطع.
- هل هذه فعلا تهمك ؟!
- إنْ صدقتكَ، كذبتَ نفسي
- وأنا لا أحبُ على نفسي أن أكذب
- النائب العام: أنت متهم بالسفر إلى دولة ممنوعة السفر
- حينذاك لم تكن ممنوعة. بل سفارتهم في بلدك مفتوحة
- النائب: لكنها الآن ممنوعة
- كيف يا نائبا تتهمني تهمة على فعلٍ مضى لم يكن ممنوعا. أيها النائب العام: أنت اخترتَ فعلا وتصرفا من تصرفاتي وجعلته تهمة بلا شرْعٍ وبلا قانون وبلا نظام ولا لائحة. إنما أنتَ لفقتَ التهمة.
- النائب: لا تجادلْ. تهمة أخرى: اشتركت في مؤتمر يدعو إلى الانقلابات والثورات
- أنا، ما كنتُ لأفعل. إنما مشاركتي كانت في تطوير مهارات الشباب على التفكير والإبداع. ولم يكن المؤتمر عن الثورات. كيف يكون مؤتمرا عن الثورات في دولة عربية. هذا مؤتمر رسمي حضره الوزير والوزراء. لكن أنا الذي أتهمك أيها النائب: كيف أذنتَ باجتماعات جمعية الفكرة. جمعية لن أسمي لك من يدعمها ولن أسمي لك من يرأسها.
- أيها النائب، حينما أعارضك، لا يعني هذا بأنني ضدك. أنا ضد حكمك فقط. حكمك لا تبرير له إلا أنك تريد أن تفعله.

- أنا أتعجب منك: كيف اتهمتني بإحدى تهمك بالإساءة إلى بلدي. بل أنت أيها النائب العام من يسيء إلى بلدي ؛ كيف تجرمني بهواك. أنت تريدُ أن توقفني ؛ وعليه صِرتَ تلفق أحكاما وتلفقني. أنت فوضوي بلا قانون وبلا نظام تتهمني. ما عاد العالم اليوم شاشته بيضاء وسوداء. العالم اليوم كله ملون، كله بين يديك. كله يراك ويسمعك. فلا تسئْ إلى بلدي. الكل يضحكُ عليك. جعلتنا أيها النائب مضحكةً، فأسأتَ إلى بلدي. فمن الذي أساء أنا أم أنتَ ؟
- توقف أيها النائب فلست أنا حمارا تجرجرني، ولست كلب مزرعتك تقيدني، ولست خروفك تبرسمني. فكن عاقلا وتكلمْ بأدب ولا ترفعْ صوتك. تأدبْ. أنت موظف تؤدي عملك. فأدِّ عملك بأدب. وقبل كل هذا: أعطني نصا قانونيا لجرمي. لا تلبسني ثوب حمقك.
- أنا أعلم من أين جاء الحمق. فخلف كل نظامٍ أحمقٍ، جاميٌّ أحمق.
- القاضي الذي بجواره جهة الشمال: تأدبْ. لا تتكلمْ على الجامية. فهي من أنظمة الحكم. هي التي تدير الوزارة الإسلامية.
- عقبَّ المتهم: وتديركَ أيضا. أعرفهم أحسنُ منك لو أردتَ تسميتهم لسميتُ. أنا لا أعيب شخصا. أنا أعيب الفكرة. كيف تعيش بعقل جامي. لا يمكن !. عقلٌ متناقض مع نفسه قبل غيره.
- سؤال أيها النائب العام: وضحْ لي ما معنى هذه التهم. لأن هذا الكلام ينطبق عليك أيضا. فأنت بتقريرك هذه التهم، تؤكد جهلك بتوصيف القانون. (مبتسما) أليست الفتنة العمياء الصماء في الحديث تُعرفُ بدعاتها وأبوابها؟ ألا ينقلبُ هذا عليك وعلى من تعرف ؟!. أستحي أن أواصلَ التعليق على عبارات التهم لأنها عامة جدا وفضفاضة. تتغير بالشخص الذي يضعها وبالشخص الذي يطبقها. ورائحة الجامية تفوح في كل عبارة ووصف.
- ألا يساهم في الفتنة العمياء الجاميون بتعاميم الخطب الأسبوعية ؟ ألا يساهمون في الفتنة بتعطيل دروس المشايخ الغير معتبرين عندهم ؟ ألم يساهموا في حبس المشايخ وإيقافهم ؟ ألا يساهمون في قتل المسلمين في مصر وليبيا !. ألا تكون الجامية سببا في نفرة الشباب عن المساجد وحلق العلم وحلق القرآن ؟
- ألا تكون الجامية سببا في الحنق على ولاة المسلمين بسبب تصرفات الجاميين ؟!. ألم ينتشر مقطع عن أحدهم ومقاطع لغيره صارت أضحوكة بين المسلمين ؟!. هم ينقمون على كل الجماعات إلا جماعتهم بدعوى الحزبية. أليسوا هم حزباً هتلريا نازيا متعجرفا ؟!. من الذي يزعزع أمن الوطن إذن ؟!. ضِقنا بهم في استراليا كنا مجتمعين، فجاءوا وعبثوا وفرقونا.
- تأمل عبارة إحدى التهم: مقاطع الثورات والعلماء المعتبرين. فمن غيرهم الذي يقصص ويقتطع ويجتز الكلام محرفا سواهم !. (تكررت ابتسامتي بضيق)
- من الذي يقررُ اعتبار العلماء ؟ من الذي قيدَّ اعتبارهم !. فكل من خالفَ جاميتك فهو غير معتبر. وهي قائمة طويلة بغير المعتبرين عندكم، ملأتم السجون بهم في كل بلد. بل حتى في أوروبا المسبار الجامي - الذي

يدفعُ المال لتزييف التقارير - ينوبُ عنكم. كان قديما مسمبرا مفجرا ، وحينما لبرلل، ازداد تسمبرا. فمن كان غير متزنٍ، في حال تدينه وحال لبرته. فكيف به يا نائبا تتزنُ . أليس الجامي المتسمبر هو الأخطر . أليس هوَ أنتَ ؟.

- تجاوزت حدودك تأدب وإلا طردتك من المحكمة فقد طال صبري عليك
- معذرة أيها النائب العام: لا تهمني الجامية ولا غيرها وليس حديثي عنها. أنت تتهمني بهذه التهم !. وهي تهم جامية وليست تهما لا في الشريعة وليس لها نص في القانون، فكيف بها اتهمتني ؟! تهمٌ حتى أنها لا تستحق محاميا يدفعها.
- أنا أعرف بأنني محكومٌ عليه قبل التهم، لأن كل هذا تلفيق في تلفيق. ألا تستحي أيها النائب العام أن يقرأ القضاة والشرعيون والعلماء والقانونيون والمحامون في العالم هذه التهم التي لا معنى لها. انظر في هذه التهم !. قليلا من الحياء أيها النائب والقاضيان !
بالله عليك دولة عظيمة كدولتكم، أهذا توصيف تهمها ؟ ألا تستحون ؟!.

- تهمة: الإفساد في الأرض. ما معنى الإفساد هنا ؟ حفلاتكم الصاخبة في الشوارع هذه ألا يشملها هذا التوصيف ؟ هل الإفساد هو الفعلُ نفسه أو شخصا يقرره ؟. كالهيئة عندكم مؤخرا. غناء بإذن من هيئة الترفيه لا ينكر ولا يمنع، وما كان بدون إذن فيمنع وينكر. ما هذا ؟! كيف وصلتم إلى هذه الدرجة من التيه ؟!. صارت الدعارة قانونا بل وعلى الدعارة ضرائب !. الخمور وبنوك الربا أليست من الإفساد ؟ ألاحظت لم نتفق على معنى الإفساد. فكيف به اتهمتني ؟
- لا وصف لتصرفٍ مُحدَّد بحيث نقرر بيقين أنَّ من فعله نقول عنه متهم بالإفساد. ففي اللفظة نفسها تدخل ما تشاء وتخرج ما تشاء . بل الفساد الحقيقي المخالف للشريعة، المأذون به من هيئة الترفيه لا يشمله الإفساد. أرأيت !. فكيف تتهمني بالإفساد ؟.
- أنا أسألك:
- ما رأيك بأن من يصفَ شخصا بأنه مفسدٌ بدون سند شرعي ولا قانوني، ألا يعدُّ هذا قذفا يحاكم به عند القاضي ؟. فكيف إذا كان القاذف هو النائب العام ؟ أأنت متصور ما نحن فيه من تهم !؟
- تهمة: السعي المتكرر لزعزعة بناء الوطن
- تهمة: إحياء الفتنة العمياء.
- تهمة: تأليب المجتمع على الحكام
- تهمة: إثارة القلاقل
- تهمة: الارتباط بشخصيات وتنظيمات
- تهمة: عقد اللقاءات والمؤتمرات داخل وخارج الوطن لتحقيق أجندة تنظيم الإخوان الإرهابي ضد الوطن وحكامه.
- تهمة: دعم الثورات في البلاد العربية من خلال ترويج مقاطع تدعم الثورات

- تهمة: إظهار المظالم للسجناء وحرية الرأي
- تهمة: الانضمام لتجمعات واتحادات علمية دينية مخالفة لمنهج كبار العلماء المعتبرين
- تهمة: الإشراف على ملتقى يجمع الشباب كنواة لقلب الأنظمة العربية
- تهمة: الانضواء تحت قيادة أحد المصنفين على قائمة الإرهاب (يوسف القرضاوي) وتوليه منصب الأمين المساعد في الاتحاد.

- ألخصُ لك كل هذه التهم في عبارة قصيرة: " إن لم تكن جاميا فأنت متهم " بكل هذه البساطة. هذه العبارات التي بلا معنى شرعي ولا قانوني. جامية معروفة. قلبُ الجامي: قلبُ حاقدُ ومريضٌ، شرايينه ماء الصرف الصحي. معذرة
- النائب العام: تأدبْ.
- ما نفعُ الكلام مع من كان على صفتك. محكمتك هذه أيها النائب لا تختلف عن غوانتانامو . الاختلافُ فقط بشكل عربي . حتى في الظلم والإجرام أنتم نَسَخَة. هؤلاء الذين خرجوا براءة من غوانتانامو بعد خمسة أعوام وعشرة أعوام وخمسَ عشرة عام، كيف تعوِّض ما مضى من عمرهم ؟!.
- من أعطى الجيش الأمريكي الحقَّ في وصف التجريم، هربوا بهم إلى كوبا هروبا من القانون. وهو فعلك نفسه. فأنت تصلح مع قاضييك أن تكونوا جنودا أمريكيين في غوانتانامو. بل حتى الأسلوب هو نفسه.
من خوَّلكَ وأعطاك الحق لتوصيفي بالجرم ؟! منْ ؟ كيف جعلتَ هذا الفعلَ جريمة. ولو صدر الفعلُ نفسهُ من شخصٍ آخرَ لأثنيتَ عليه ومدحته. ألم أقل لك أنك غوانتانامو ؟!.
- النائب العام: تجاوزت حدودك يا مجرم
- (ابتسمتُ) لماذا أيها النائب أنت كغوانتانامو. أنا أجيبك: ليس عندك توصيفا دقيقا في هذه الاتهامات ما يدخل تحتها. مثلا: أليس الجاميون يؤلبون الناس على حكامهم بحماقتهم وتصرفاتهم الخرقاء ؟. بلى؛ إذن لماذا لا تقبض على الجامي الأخرق الذي يضر الحكام أكثر مما ينفعهم ؟! بل أحدهم من بلادكم هذه صار أضحوكة في الإعلام الحديث كله ؟ لمَ لمْ تعاقبه ؟!
- أنا أجيبك: لأنه هو الذي قرر هذه التوصيف للجريمة وفق معايير جاميته، وبالتأكيد هو مستثنى منها في كل الأحوال. أنا واثق بأنك ستحبسني؛ لأنه قرار مقرَّرٌ قبلُ مجيئي، أنا هنا في تمثيلية فقط. أمر ظريف جدا، تأخذ أحد تصرفاتي فتجرمه. أنت لا تطبق نظاما على تصرفي. بل تجعل من تصرفاتي نظاما جزائيا لك لتحبسني. والخلاصة: ستحبسني لأنني لم أكن لك عبدُ !.
- يقع من أصحابك الجاميين وغيرهم أضعاف أضعاف ما وصفتني به، لكنك لا تجرمهم. توصيفك فقط على أشخاص محددين أردت حبسهم. هذا ليس نظاما هذا عبث بالنظام. فإذا كان كذلك، فأول من يجب أن يعاقب أنتم الثلاثة. لأنكم تستغلون مناصبكم لتحقيق أهدافا شخصية. وأنا أظنُ أول من يجب أن تلتفتَ إليه نزاهتكم، إليكم أنتم. لعبثكم بالنظام لمصالحكم الشخصية.
- النائب العام: تأدبْ قالها متنحنحا وسقط منه عباءته (بشته).

- بل أنت الذي تأدبْ. وتكلمْ بأدبٍ ولا ترفعْ صوتك. فيكفي بما رفع الضابط يده. أتظنني ولدك الصغير تؤدبه. لِمَ لا تؤدبَ الضابط الذي بصقَ وضرب. لماذا لا تحاسب الضابط الذي قتل ؟ أيها النائب العام أنت الذي أعطاه الحق ليفعل. ثم تقهرني أن تجيء بيَّ هنا في محكمتك الظالمة وبهواك وتوقيعك تجرمني.
- أخبرني ما جريمتي ؟!. ألا تتردد في إدراج تهمة بتوصيف فتنة عمياء ؟! هل من دعا إلى تطبيق الشريعة دعا إلى فتنة عمياء ؟. أليس هذا الداعي يدعو إلى أبواب الجنة وليس يدعو إلى أبواب النار كما في الحديث عند أبي داود وغيره ؟!. أين مجلس الشورى والبرلمان عن توصيف تهمكم !.
- لنتفق أولا ما الذي يدخل تحت الفتنة العمياء ؟ هذا توصيف صعب لأن تتهم شخصا به. فالوصف غير محدد، فكيف صيرته تهمة ؟!. وأنت من يثير القلاقل والمشاكل بين الحاكم وشعبه برعونتك وحمقك. فلماذا لا تعاقب وتحبس إذا أنت من يثيرها.
- تظن نفسك أيها النائب العام أنك القانون !. أنت لست القانون، أنت من ينفذه فقط. ليس القانون من صنعك. دولتكم دولة عظيمة، كيف سمحت لنفسك بأن تكون بشخصك وهواك ومزاجك أنت قانونها ؟!. ألا توجد أنظمة رقابة على تصرفاتك وأحكامك ؟
- أليس في جائزتك العالمية كافأت القرضاوي. فكيف كافأت مجرما ؟! . أتعرفُ معنى اتهامك للقرضاوي ؟ معناه: أنكَ تجرِّم صاحب المكافأة، ولجنة المكافأة، ومن أعطاه المكافأة.
- ألا ترى كم أنت أحمقا في اتهاماتك؟ ألا ترى تبعاتِ قرارك هذا ؟! ألا تفهم ؟ ألا تعقل ؟
- تكافئه اليوم، وغدا تضعه على قائمة الإرهاب. هذا اضطراب في التصرفات. خطأ اليوم ، صوابٌ غدا. وصواب اليوم ، خطأُ غدا. هذا مرض عقلي. ستخلق فيمن تعامله اضطرابا؛ لأنه لن يميز بين الخطأ والصواب. هذا جنون.
- من الذي أثار الفتنة الآن ؟ هل أثارها المظلوم المحبوس ؟ أم أنتم ومن على شاكلتك من الجاميين ؟
- النائب العام: ليس هذا شأنك !
- كيف ليس هذا من شأني !. أنت تجرمني الآن. ستؤبدني ، وقد تعدمني !. ما أرخصَ حياتي بين يديك. كيف هذا ليس من شأني. أنا لا انتقدُ شخصك ولا يعنيني هذا. الذي يؤلمني أن يكون قانونك هوىً شخصي بهذه الصفاقة. طبعا لا أوافقُ تصرف الأحمق الجامي، لأنه يقرِّرُ ثم يبرِّرُ. والله إنه من العيبِ على حكومة عربية أن يكون مسؤول فيها جامي أحمق. ونحن في زمن الإبداع والابتكار لا الحمق.
- النائب: توقف عن وصفك الجامي بأنه أحمق
- كيف أتوقف وهو وراء كل هذه الاتهامات والبلاء الذي نحن فيه، ينبغي الأخذ على أيديكم، تستغلون مناصبكم لجاميتكم. هذا لم تفعله الجماعات الأخرى لعدم قربهم من المناصب !. وحينما نُصبتم، عبثتم عبثا عظيما، وإحصائياتكم ملفقة تحتاج بعرضها على متخصص محترف ليكشف زيف أرقام تقاريركم.

- يظنُ الجاميُ أن الجامية هي الشريعة، وهي الدولة !. فإذا انتقدت الجامية كأنك عنده انتقدت الشريعة. وهذا حمقٌ ليس بعده حمق. كيف تأمنُ نفسك مع شخص مزاجي. إذا راقَ، راقَ معك، وإذا كرِهك أعدمك وطردك.
- كالأسد في التهور ليس في الشجاعة. إذا جاعَ الأسد، فَقَدَ عقله حتى أنه قد يأكلُ ولدَه. والجاميُ إذا لم توافقه، غدَرَ بك من خلفك. كالأسد يباغتُ فريسته من الخلفِ بالغدر. كما يفعل الجامي في التقرير. يبتسمُ في وجهك، وإذا انفردَ بتقريره، جرَّدك من الوطن والوطنية وشطبك، وبفهمه السقيم حرَّف وأولَّ ولوزَّمَّ، فاتهمك ثم إلى المباحث بتقريره أرسلك.
- سؤال أيها النائب العام ؟
- النائب العام: ضِجرتُ من كثرة أسئلتك
- هل المقصود بإثارة القلائل، صحن المقلقل في الكافتيريا ؟ (المقلقل: لحم يحمس بالزيت مع قليل من البصل)
- النائب العام: تأدب. بدأتَ تسخر.
- وأي سخرية أشد من هذه العبارات التي بها للسجين تسجن.

ألتفت النائب إلى قاضيه على اليمين وعلى الشمال. اسكتْ، سنتشاور في الحكم ونرجع. أصدرَ النائبُ أمرا إلى الجندي النائم: لا تخرجه من الصالة، دعْهُ هنا. سنرجع بسرعة. خرجوا من القاعة ولم يجلسوا ليتشاوروا، ورجعوا بسرعة ؛ كان الحكم مقررا قبل الجلسة.

النائب العام: اجتمعت اللجنة وقررت الحكم عليك: بالمؤبد.

- علا صوتي في القاعة بالضحك سخرية : مؤبد ! ، لم أكن متعجبا وهل سينفعُ رفضي . إذا لم تكن جاميا، فأنت مجرمٌ على أية حال، فكيف إذا صِرتَ ناقدا لظلامِ الجامية وتهم النائب العام.
- أنتَ مع هوىً وليس مع نظام وقانون !. شكرا أيها النائب العام وشكرا لقاضييك. لحظة وأنا المتهم سأصدرُ حكمي عليكم وعساي أن أكونَ في الحكمِ أعدلُكم.

ابتسم النائب العام والقاضيان

- المتهم: القضاة ثلاثة، اثنان في النار والثالث ينجو. لكن أولهم كلهم عندي: أنني رفعتُ قضاءَكم وحكمكم إلى ربي، وعنده سنلتقي. وجمَ النائب العام والقاضيان.
- لم أنتهي بعد، في تقديري الشخصي، أنا لست قانونيا وما سأقوله يحتاج إلى عرض على لجنة قضائية قانونية، فأقول: نظرا أيها الثلاثة لمعرفتكم بالشريعة والقانون والأنظمة واللوائح، ولستم ممن يعذر بالجهل، فإن إقدامكم على إعدام شخص بهذه الاتهامات، في ظني هو قتل عمد لا يداخله أية ذرة شكٍ فيه؛ وعليه فمن حق أولياء الدم مطالبتكم بالقصاص. والسبب ليست هذه التهمُ، تهما حقيقية لأنها ليست موصوفة وصفا إجرائيا في

لوائح وأنظمة قانونية واضحة وضوحا لا لبس فيه. إنما هي اجتهادات شخصية جامية قابلة للنقض بدون تردد.

- والحدود تدرأ بالشبهات. وهنا ليس عندنا شبهة أصلا لندرأ بها حدا. إنما هي اتهامات شخصية لا ترق أن تكون تهمة لا يستحق عليها أية متهم سجنا فضلا إعداما. ولهذا أنا أحذركم وأنصحكم أن تراجعوا أنفسكم. وفي الحقيقة أنتم محكمة عسكرية وإن بدوتم مدنيين، وليس بالعباءة وبقليل من اللحية تجعلكم قضاة شرعيين. ولو كنتم فعلا محكمة عسكرية فمصيبتكم أعظم. والأعظم، مصيبتنا بكم !. نظر النائب والقاضيان في بعضهما البعض مذهولين مما قاله الشاب المتهم.

سحبَ الجنديُ المتهمَ خارج القاعة، وسألَه: أيةُ سجنٍ تفضلْ ؟ فأنت مؤبد ، يحقُ لك الاختيار !.

لم يسكت الجندي واقترحَ على الشاب: لا تخترْ يا ولدي دولةً جمهورية لأنهم يهدمون السجون إذا جاءت جمهورية جديدة، وإياك ... إياك ... إياك دولة عسكرية أُحذرِّك، فهم ظلَّامٌ مع ظَلَمَة، اخترْ مملكةً ، لأنه إذا ماتَ الملكُ، جاء الملكُ الجديدُ وعفى. ففي المملكةِ قد عن المؤبدِّ تُعُفَى . ألتفتَ المتهمُ إلى الجندي مبتسما، وسأله: وإذا طالَ عمرُ الملك !.

صمتَ الجندي ولم يجُب، وهو يرافقه بهدوء وعيناه تدمعان، دعْكَ من هذا يا ولدي. خذْ يا ولدي هذه الخمسة الدولارات فهي كل الذي عندي، وإنا كنا في أول الشهر. دمعتْ عينا المتهم وقال للجندي: ذكرتني بأبي.

رقَّ قلبُ الجندي على المتهم الشاب مزيدا من الرِقة : خذْ ... خذْ يا ولدي هذا الرغيف خبأتهُ لك، فستجوعُ كثيرا في الحبس. وقبل أن يركبَ الشابُ سيارةِ الحبس: ألتفتَ المتهمُ إلى الجندي الفقير الحنون: ضعني في أية دولة عربية، فكلهم سواء، !. فليس على الأرضِ جنَّة .

زعقَ النائب العام إلى قاضييه بصوت عالٍ: انتهت الجلسة .

انتهى .

السادس من المحرم للعام الجديد 1444هـ